

خبز الصّغار

قصة يوسف أبو رية

رسوم

حلمي التوني

خبز الصّغار

قصة يوسف أبو رية   رسوم حلمي التوني









خُبْزُ الصِّغَارِ





الْبِنْتُ الَّتِي جَلَسَتْ
بِجِـوَارِ الْفُـرْنِ؛ شَيَّـدَتْ
بَيْتَها بِحَجَرَيْنِ كَبِيرَيْنِ
وَخَشَبَةٍ عَـرِيضَةٍ، أَنَـامَت
الـرَّحَى، وَقَالَتْ: «هِيَ الْفُـرْنُ الَّذِي سَـأَرْمِي فِيهِ أَرْغِفَتِي».

جَلَبَت الْمَاءَ مِن الطُّلُمْبَةِ الْقَـرِيبَةِ، عَجَنَتْ بِـهِ الطِّينَ الَّذِي سَوَّتْ مِنْهُ أَرْغِفَةً؛ تَقَافَزَتْ بَيْنَ يَـدَيْهَا عَلَى الصَّفِيحَةِ الصَّدِئَةِ. وَالْوَلَدُ أَعْطَـاهَا وَرَقَتَـيْنِ. قَالَ: «اشْتَرِي لَنَـا غَدَاءً مِن السُّـوقِ؛ حَتَّى أَعُودَ مِن الشُّغْلِ».





وَذَهَبَ إِلَى هُنَـاكَ؛
تَحْتَ الشَّجَـرَةِ الَّتِي تُغَطِّي
سَطْحَ الدَّارِ، وَتَنَـامُ أَغْصَانُهَـا عَلَى السُّـورِ الْمُطِلِّ
عَلَى الشَّارِعِ الْكَبِيرِ.

أَمْسَـكَ الْعَصَا، وَقَـالَ لِلْأَوْلَادِ: «انْحَنُـوا عَـلَى شَجَرِ الْقُطْنِ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ أَعْثُـرَ عَلَى لَطْعَـةٍ تَغْفُلُهَا عُيُونُكُمْ».

وَقَـالَ لِنَفْسِـهِ: «هَكَـذَا؛ كَـانَ الْخُـولِي يَقُـولُ لِلْأَنْفَارِ، لَكِنَّ الْمُهَنْدِسَ الَّذِي جَـاءَهُ رَاكِبًا فَـرَسًا؛ ضَرَبَهُ فِي وَجْهِهِ؛ لَمَّا عَثَرَ الدُّودِ يَأْكُلُ الْوَرَقَةَ».



جَـاءَت الْبِنْتُ إِلَيْهِمْ، وَقَـالَتْ:
«مَـا رَأْيُكُمْ لَـوْ خَبَزْنَا بِعَجِينٍ حَقِيقِيٍّ».
رَدَّ الْوَلَدُ الْوَاقِفُ:
«أَنَا أُحْضِرُ الدَّقِيقَ».
وَرَدَّ الْوَلَدُ الْمُنْحَنِي:
«وَأَنَا أُحْضِرُ الْمَاءَ».











لَمَّا دَخَلَ مِن الْبَابِ الْمَفْتُوحِ عَلَى الْحَوْشِ؛ رَأَى أُمَّهُ جَالِسَةً تُغَنِّي؛ وَظَهْرُهَا إِلَى الْبَابِ، وَوَجْهُهَا إِلَى الْوَابُورِ تُنَظِّفُ ثِمَارَ الْكُوسَةِ.

غَافَلَهَا، وَفَتَحَ بَابَ الْحُجْرَةِ الْمُقَابِلَةِ الْمُعْتِمَةِ؛ نَافِذَتُها مَسْدُولٌ عَلَيْهَا الْخَيْشُ، وَبُقْعَةُ نُور ضَئِيلَةٌ تَسْقُطُ مِنْ مَنْوَرِ السَّطْحِ عَلَى كِيسِ الذُّرَةِ، وَقُفَّةُ الدَّقِيقِ كَانَتْ فِي الرُّكْنِ عَلَيْهَا جِلْبَابُ أَبِيهِ الْقَدِيمُ. رَفَعَهُ بِحَذَرٍ، وَمَدَّ قَبْضَتَهُ يَمْلَأُهَا لِيُفْرِغَهَا فِي حِجْرِهِ.





حِينَ مَرَقَ مِنْ بَيْنِ ضَلْفَتَي الْبَاب؛
وَاجَهَتْهُ أُمُّهُ عِنْدَ الزِّيرِ تَمْلأُ الْكُوزَ؛
سَأَلَتْهُ عَمَّا كَانَ يَفْعَلُ بِالْحُجْرَةِ.
قَالَ:
«كُنْتُ أُرِيدُ لُقْمَةً مِنْ سَلَّةِ الخُبْزِ.











وَأَسْــرَعَ إِلَى الْحَوْشِ حَيْثُ وَجَـدَهُمْ يُقِيمُـونَ الْفُرْنَ بِأَحْجَارٍ صَغِيرَةٍ، يَلْصِقُونَهَا بِطِينٍ قُطِعَ مِنْ حَوْلِ عُنُقِ الطُّلُمْبَةِ.

وَالْبِنْتُ كَانَتْ تَجْمَعُ أَعْوَادَ الْحَطَبِ وَالْقَشَّ مِنْ حَظِيـرَةِ الدَّجَـاجِ ، تَصُفُّـهُ بِجَـانِبِ الْجِـدَارِ، ثُمَّ جَلَسَتْ تَخْلِطُ الـدَّقِيقَ بِالْمَـاءِ فِي صَفِيحَةٍ قَـدِيمَةٍ، تَضْرِبُهُ بِكَفِّهَا الصَّغِيرَةِ؛ حَتَّى صَارَتْ لَهُ فَقَـاقِيعُ تُبَقْبِقُ طَـارِدَةً الْهَوَاءَ الْمُحْتَشِـدَ. كَـانَتْ تَـوَدُّ لَـوْ تَسْمَعُ لَهُ ضَرَبَاتٍ تَهُزُّ أَرْكَانَ الدَّارِ؛ كَعَجِينِ أُمِّهَـا الَّـذِي تَنْكَفِىءُ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْـلِ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ، وَقَالَتِ الْبِنْتُ لِنَفْسِهَا: «الْعَجِينُ لَنْ يَخْمُرَ، وَلَنْ يَنْتَفِـخَ حَتَّى يَنْدَفِقَ عَـلَى جَوَانِبِ الصَّفِيحَـةِ؛ لأَنِّي لَمْ أُسَمِّ عَلَيْهِ».

حَرَّكَتْ شَفَتَيْهَا بِـاسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الـرَّحِيمِ، ثُمَّ قَرَأَتِ الْفَاتِحَةَ الَّتِي حَفِظَتْهَا عَنْ أَبِيهَا.



صَنَعَ الأَوْلَادُ لِلْفُرْنِ فُتْحَةً كَبيرَةً يُدْخِلُونَ مِنْهَا النَّارَ، وَفُتَحَاتٍ صَغِيرَةً ضَيِّقَةً يَخْرُجُ مِنْهَا الدُّخَانُ. فِي النِّهَايَةِ مَدَّدُوا الصَّفِيحَةَ الصَّدِئَةَ عَلَى سَطْحِ الْبِنَاءِ، ودَعَّمُوا مَنَافِذَهَا بِالطِّينِ وَالْحَصَى.

وَفَكَّرُوا: «فِي رَمَضَانَ سَنَأْتِي بِالْكُوزِ الْمَثْقُوبِ مِنْ أَسْفَلِه؛ لِنَرُشَّ عَلَيْهِ الْعَجِينَةَ خُيُوطاً رَفِيعَةً لِتَكُونَ الْكُنَافَةَ، أَوْ نُوَزِّعَ الْعَجِينَةَ قِطَعاً صَغِيرَةً لِتَكُونَ الْقَطَايِفَ.





مَسَحَ الْوَلَدُ خَيْطَ الْمُخَاطِ الَّذِي سَالَ عَلَى شَفَتَيْهِ، وَهَيَّأَ عُودَ الثِّقَابِ الَّذِي يَحُكُّهُ بِجَانِبِ الْعُلْبَةِ فَتَخْرُجُ النَّارُ، لِتَنْتَشِرَ قَوِيَّةً فِي الْقَشِّ. وَأَعْوَادُ الْحَطَبِ: لَمَّا دَسَّهَا فِي الْفُتْحَةِ الْكَبِيرَةِ اخْتَنَقَ اللَّهَبُ، وَخَرَجَ مِنْهُ الدُّخَانُ كَثِيفاً؛ يَسِيلُ لَهُ دَمْعُ الْعَيْنِ.



قَالَ الْوَلَدُ: «دَعْنِي أَنْفُخُهَا».

جَمَعَ الْهَوَاءَ فِي شِدْقَيْهِ، وَدَفَعَهُ بِقُوَّةٍ عَلَى الْجَذَوَاتِ الْخَابِيَةِ؛ فَاسْتَيْقَظَ لَهِيبُهَا مُنْتَشِراً فِي الْوَقِيدِ، قَرَّبَت الْبِنْتُ الصَّفِيحَةَ، بِرَاحَتِهَا رَفَعَتْ قِطْعَةَ الْعَجِينِ، أَرَادَتْ أَنْ تَهُزَّهَا فِي الْهَوَاءِ؛ كَمَا تَفْعَلُ الْخَبَّازَةُ؛ لَكِنَّهَا انْدَلَقَتْ مُخْتَلِطَةً بِالتُّرَابِ.

قَالُوا لَهَا: «لَا تَضْرِبِيهَا فِي الْهَوَاءِ».



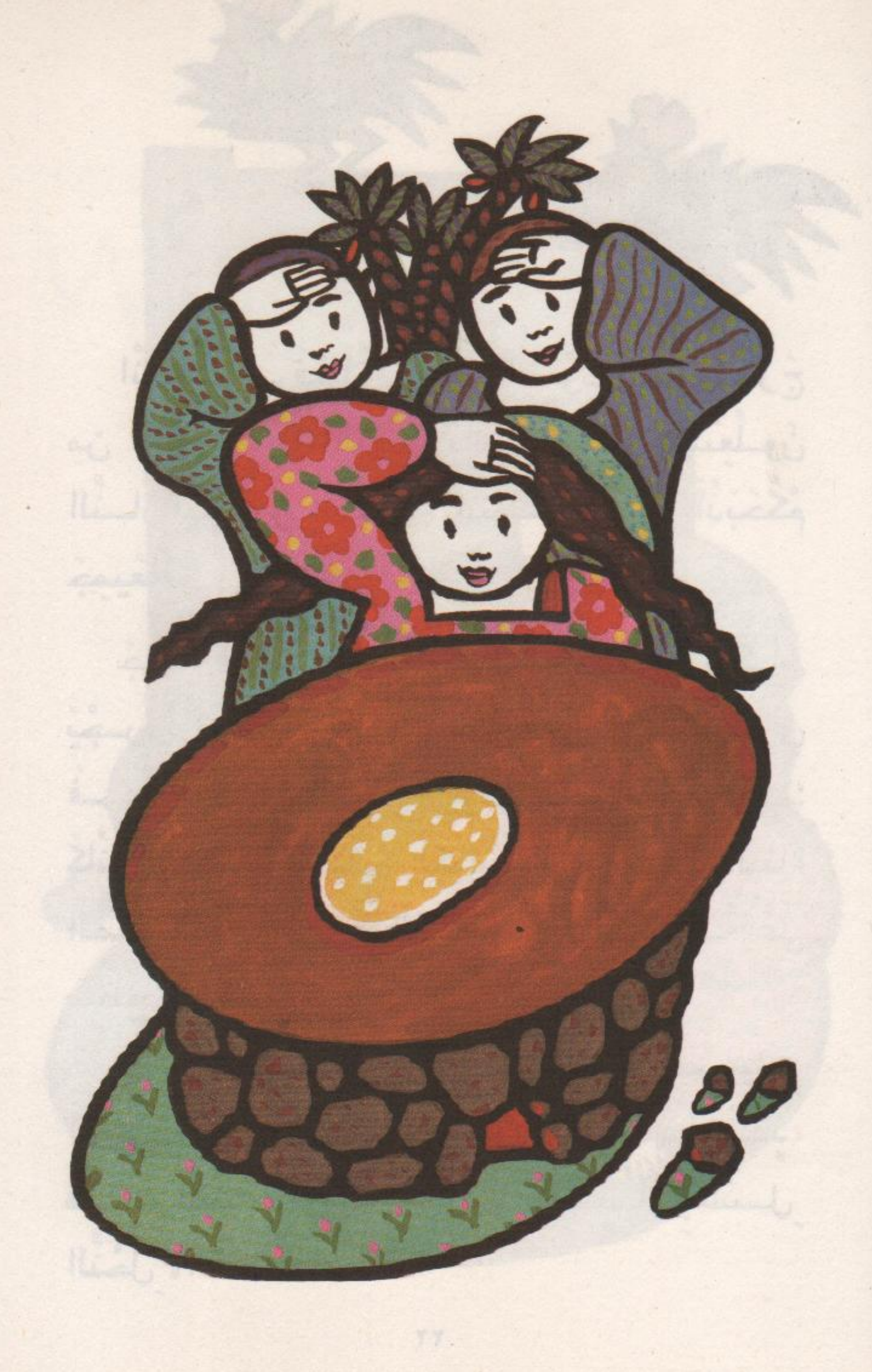


نَثَرَتْ الدَّقِيقَ عَـلَى الْخَشَبَةِ الْعَـرِيضَةِ، وَرَمَت الْقِطْعَةَ الطَّرِيَّةَ، ثُمَّ رَاحَت تَدْفَعُهَا مَا بَـيْنَ كَفَّيْهَا؛ تُحَلِّقُ فِي الْهَـوَاءِ لِتَسْقُطَ عَلَى الْخَشَبَـةِ مَفْـرُوشَـةً مُسْتَـرِقَّة، رَمَتْهَـا عَلَى الفُـرْنِ، وَرَفَعَتْ خُصْلَـةَ الْشَّعْرِ الّتِي سَقَطَتْ عَلَى عَيْنِهَـا، أَمَالُـوا الوُجُـوهَ يَتَرَقَّبُونَ، وانْتَظَرُوا حَتَّى انْتَفَخَت قِطْعَةُ الْعَجِـينِ، وَانْقَلَبَ لَوْنُهَا حَتَّى صَارَتْ مُصْفَرَّةً.

قَالُوا: «هَا هِيَ تَسْتَوِي كَخُبْزٍ حَقِيقِيٍّ. سَنَضَعُ لِكُلٍّ مِنَّا رَغِيفًا، نَدَعُ الْفُرْنَ لِنَخْبزَ عَلَيْـهِ كُلَّ يَـوْمٍ أَرْغِفَةً نَأْكُلُهَا، وَنُوَزِّعُ مِنْهَا عَلَى أَوْلَادِ الْجِيرَانِ».









انْتَفَضُوا ـ فَجْأَةً ـ عَلَى الصَّوْتِ الَّذِي خَرَجَ مِنَ النَّافِذَةِ: «يَا أَوْلَادَ الأَبَالِسَةِ.. هَكَذَا تُشْعِلُونَ النَّارَ لِتَحْرِقَ الدَّارَ.. انْتَظِرُوا حَتَّى أَذْبَحَكُمْ جَمِيعًا».

جَمَعَ الْوَلَدُ الرَّغِيفَ في كَفِّهِ، وَبِقَفْزَةٍ كَانَ يَجْرِي أَمَامَهُمْ، وَالدَّجَاجُ مِنْ حَوْلِهِمْ يَجْرِي فَزِعاً. دَخَلُوا الْحَظِيرَةَ؛ وَمِنْ خَصَاصِ الْبَابِ؛ كَانُوا يَرْقُبُونَ الْقَدَمَ الْكَبِيرَةَ الَّتِي سَوَّت الْبِنَاءَ الصَّغِيرَ بِالأَرْضِ، وَالْيَدَ تُطَوِّحُ الصَّفِيحَةَ عَلَى سَطْحِ الدَّارِ.

جَلَسَ الْوَلَدُ عَلَى الأَرْضِ لِيُقَسِّمَ الرَّغِيفَ. أَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ لُقْمَةً، مَضَوْا يَلُوكُونَهَا بِتَلَذُّذٍ، قَالَت الْبِنْتُ: «وَاللهِ؛ كَأَنَّنَا غَمَسْنَاهُ بِعَسَلِ النَّحْلِ».





سلسلة تقدم اللوحات الفنية الرقيقة التي تصور الأطفال وعلاقتهم بالطبيعة من حولهم وما فيها من حركة وحياة ومشاعر، وتحبب الطفل في الجمال والعمل والحلم والشجاعة والأمل.

صدر منها:

١ - الصبي والشمس.
٢ - زهرة القمر.
٣ - خبز الصغار.





كورنيش المزرعة. بناية النزك. ص.ب. ١٤/٥٢٣٦. بيروت - لبنان